الوجودية .. وحقيقتها

بقلم : سعادة الدكتور محمد بن سعد الشويعر
رئيس تحرير مجلة « البحوث الإسلامية » الرياض

يتيه الإنسان في النوازع والأفكار التي تتجاذبه ، وتضطرب به هواجسه و وساوس نفسه ، إذا لم يكن الاسترشاد الديني هو المسك بزمام تلك الهواجس ، وإذا لم يكن المقود العقدي ، من حيث الإيمان بالله -جل وعلا- والإيمان بملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره و شره ، هو المرشد لقلب الإنسان ، و الآخذ بزمام التوجيه والرعاية ..

ذلك أن الإنسان منذ خلق الله آدم ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، تتجاذبه نزعتان ، نزعة الخير ، وهي التي يوجهها ما جاء عن الله ، وبلغته رسله إلى البشرية ، ونزعة الشر ، وهو ما يدعو إليه عدو الله الشيطان ، الذي أخذ على نفسه عهدًا ، منذ عصى إبليس ربه ، وامتنع عن السجود لآدم - عليه الصلاة والسلام - فكان عالم الحسد ، وغشيانه على القلب هو محور ذلك الشر ، الذي يمثل الحقد والدعوة إلى معصية لله -جل وعلا- والابتعاد عن منهجه السليم الذي رسمه -جل وعلا- طريقًا ممهدًا لأوليائه المؤمنين .

وعلى قمة ذلك الشر ، وما يفضى إليه ، الكفر بالله ، الذي هو خسارة الدنيا والآخرة ، جاءت الفرق الضالّة عن الطريق السوّي ، ومثلما رسم رسول الله -ﷺ- في وسيلته الإيضاحية عند ما قرأ هذه الآية الكريمة : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن

سبيله ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ١٥٢] فإنه -ﷺ- قد رسم خطًا مستقيمًا ، وخطّ من جانبه خطوطًا متفرعة عنه عديدة ، وأبان بهذه الوسيلة الإيضاحية لأصحابه الذين نقلوه للأمة بعده درسًا تعليميًا ، وتوجيهًا إرشاديًا ، بأن الطريق الموصل إلى رضا الله وطاعته واحد و واضح ، مستقيم لا إعوجاج فيه ، وأن الطرق الأخرى وإن كثرت ، فإنها تبتعد عن الطريق السويّ ، وتنأى بالإنسان عن جادة الصواب .

والوجودية واحدة من الأفكار الفلسفية ، التي تاه فيها العقل البشري ، وضاعت معه المقاييس التي ترتبط بالقيم والمثاليات ، ذلك أن الوجود عند المتطفلين بالأمور العقدية واللغويين ، مقابل العدم ، وعند الفلاسفة هو مقابل للماهية .. أما مفهوم الوجودية عند دعاتها حديثًا ، فيقول الدكتور عبد الرحمن عميرة : يقرر سارتر في كتابه الوجود والعدم : أن لمفهوم العدم صفة مصطنعة ، لأنه لا معنى له إلا من جهة ما هو نفي شيء ، أو فقدان شيء ، ومعنى ذلك أنه لا وجود للعدم بذاته ، وإنما الوجود للكائن الذي يتصور عدم الأشياء : فكأن العدم عنده ، لا يجئ إلى الشئ إلا بطريق الإنسان [المذاهب المعاصرة : ص/٢٠٠] . لكن المعجم الوسيط يوضح دلالة الوجودية بتعبير أقرب للفهم فيقول : الوجودية بالمعنى الأعم : فلسفة ترى أن الوجود سابق على الماهية ، وبالمعنى الأخص : يذهب سارتر إلى أنها تقوم على الحرية المطلقة ، التي تمكن الفرد من أن يصنع نفسه ، ويتخذ موقفه كما يبدو له ، تحقيقًا لوجوده الكامل [٢/١٠١٢-١٠١٤] .

ومعلوم أن الوجودية تيار فلسفي ، نشأ مع الإنسان عند ما بعد عن منابع الأديان السماوية ، التي جاءت من الله -جل وعلا- ، ولذا فقد اقترنت في بعض الخصائص بالدهريين ، الذين قال الله عنهم : ﴿ ما هي

إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [سورة الجاثية : الآية : ٢٤] . ذلك أن الدهريين كالوجوديين لا يؤمنون ببعث ولا نشور ، ولا بجزاء وعقاب ، ولذا فإن الرسالات التي هيأها الله جلت قدرته لكل أمة من الأمم : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [سورة فاطر : الآية : ٢٤] ، جاءت تترى مبشرة بحياة أخرى بعد الموت ، وبجزاء وعقاب ، فرفضت فكرة العدم التي اقترنت بالوجودية والدهرية .

ولما كانت التعريفات عند الوجوديين تأخذ مسارات متعددة : فهذا سارتر يراها : بأن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ذاته إلا بإطلاق العنان لرغباته وشهواته ، بحيث يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء ولا يبالي بعرف أو دين .

وهذا « كاموس » يقول : يتحقق وجود الفرد بمواجهة المخاوف والأخطار والتعرض للقلق والمحنة ، واستخراج كل قوة في أعماق النفس بتجربة الخوف والتعرض للقلق والمحنة ، وعند آخرين من الوجوديين : يتحقق وجود الفرد إذا اتصل بالوجود الأعظم وجود الإله ، أو وجود الكون ، أو وجود « الكارما » في عرف البرهميين ..

ومن هذه المفاهيم وغيرها يقول الدكتور عميرة : ولعل هذا ما جعل العقاد وهو كاتب كبير كما نعرف – تنطلى عليه هذه المفتريات فيقول : الوجودية مدرسة واسعة النطاق ينتمي إليها المؤمنون والملحدون ، وبين فلاسفتها أناس متدينون ، إذ ليست الوجودية في ذاتها دعوة مخالفة للدين ، ولا للعقائد الخلقية ، وليس بين مذاهبها من وحدة مشتركة غير إنصاف الشخصية الإنسانية ، أمام الجماعية في عصر شاعت فيه قيمة الكثرة والزحام ، وقلت فيه المزايا والصفات – من كتابه « عقائد المفكرين في القرن العشرين » وينكر الدكتور عميرة على العقاد هذا الفهم عن

الوجودية ، فيقول : إن الذي نراه أن المؤمن الوجودي قد يؤمن بنفسه ويكفر بالله ، لأن الإنسان موجود يراه ويسمعه ، ويتحدث إليه ، وهو لا يؤمن إلا بما يقع عليه حسّه وبصره ، وما دام الله ليس كذلك فهو غير موجود في نظرهم – تعالى الله سبحانه وتعالى عن كفرهم [المذاهب المعاصرة : ص/٢١٠-٢١١] .

والوجودية وإن كانت مقترنة بفلسفات الهند واليونان والاغريق ، من قبل بعثه رسول الله – ﷺ – وبعدها ، فإنها لم تأخذ منحىً فكريًا مستقلاً ، ومبادئ عرفت بها ، إلا مع سارتر ، واسمه بالكامل ، جان بول سارتر ، الفيلسوف الفرنسي المولود عام ١٩٠٥م وهو يهودي صهيوني ، ومن أشهر مؤلفاته من كتب وروايات تمثل مذهبه : الوجودية مذهب إنساني ، الوجود والعدم ، الغثيان ، الذباب ، الباب المغلق ، وقد تأثر بأفكاره وآرائه كثير من المهتمين بالفلسفة في أوربا وأمريكا ، وانتقلت بالعدوى ، وحب التقليد إلى ديار المسلمين مع الدارسين في ديار الغرب ، كجزء من المساوئ التي تؤخذ من ثقافة القوم ، حيث يأخذ الدارسون منهم القشور ، الذي يخسرون به الحصيلة الدينية ، والحصانة الإيمانية ، ليأتي ذلك في الفكر والأدب ، كما يلمس عند بعض الحداثيين ، وما ينبع من أعمالهم المغلّفة فكرًا ودعوة ، ورموزًا وعبارات ..

ولكي يدرك المرء خفايا وحقائق الوجودية .. توضح له الأفكار والمعتقدات لدعاة الوجود ورموزها المهتمين بها عقيدة ودعوة ، وتوجيهًا وتبليغًا ، حسبما جاء في الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان المعاصرة الصادرة عن الندوة العالمية لشباب الإسلامي ، حتى لا يغتر بها ويميل إليها إلا من لا يدرك حقيقتها ، كما فعل العقاد من قبل (عفى الله عنه وغيره مما كتب عنها بحسن نية) تقول هذه الموسوعة عن

الوجوديين :

١- يكفرون بالله ورسله وكتبه ، وبكل الغيبيات ، وكل ما جاءت به الأديان ، ويعتبرونها عوائق أمام الإنسان نحو المستقبل ، وقد اتخذوا الإلحاد مبدأ ، و وصلوا إلى ما يتبع ذلك من نتائج مدمرة .

٢- يؤمنون إيمانًا مطلقًا بالوجود الإنساني ، ويتخذونه منطلقًا لكل فكرة .

٣- يعتقدون أن الإنسان أقدم شئ في الوجود ، وما قبله كان عدمًا ، وأن وجود الإنسان سابق لماهيته .

٤- يعتقدون بأن الأديان والنظريات الفلسفية التي سادت خلال القرون الوسطى والحديثة ، لم تحل مشكلة الإنسان .

٥- يقولون إنهم يعملون لإعادة الاعتبار الكلي للإنسان ، ومراعاة تفكيره الشخصي ، وحريته وغرائزه ومشاعره .

٦- يقولون بحرية الإنسان المطلقة ، وأن له أن يثبت وجوده كما يشاء ، وبأي وجه يريد، دون أن يقيده شئ .

٧- يقولون إن على الإنسان أن يطرح الماضي وينكر كل القيود : دينية كانت أم اجتماعية أم فلسفية أم منطقية .

٨- يقول المؤمنون منهم : إن الدين - سواء كان إسلاميًا أو نصرانيًا أو يهوديًا أو غيرها - محله الضمير ، أما الحياة بما فيها فمقودة لإرادة الشخص المطلقة .

٩- لا يؤمنون بوجود قيم ثابتة توجه سلوك الناس وتضبطه ، إنما كل إنسان يفعل ما يريد ، وليس لأحد أن يفرض قيمًا أو أخلاقًا معينة على الآخرين .

١٠- أدّى فكرهم إلى شيوع الفوضى الخلقية والإباحية الجنسية والتحلل والفساد .

١١- رغم كل ما أعطوه للإنسان فإن فكرهم يتسم بالإنطوائية الاجتماعية والانهزامية في مواجهة المشكلات المتنوعة .

١٢- الوجودي الحق عندهم هو الذي لا يقبل توجيهًا من الخارج ، إنما يسير نفسه بنفسه ، ويلبى نداء شهواته وغرائزه دون قيود ولا حدود .

١٢- لها الآن مدرستان : واحدة مؤمنة ، والأخرى ملحدة ، وهي التي بيدها القيادة ، وهي المقصودة بمفهوم الوجودية المتداول على الألسنة .. فالوجودية إذًا قائمة على الإلحاد .

١٤- الوجودية في مفهومها تمرد على الواقع التاريخي ، وحرب على التراث الفخم الذي خلفته البشرية .

١٥- تمثل الوجودية اليوم واجهة من واجهات الصهيونية الكثيرة ، التي تعمل من خلالها ، وذلك بما تبثه من هدم للقيم والعقائد والأديان [ص/٥٤٤] .

والمسلم لديه من حصانة دينه ما يجعله يدرك خطر هذه الأفكار والمبادئ ، ويجد في مصدري الدين الإسلامي كتاب الله وسنة رسوله ما يردّ وساوس النفس ، ويكبح جماح الشهوات ، ويربى العقول على الإدراك والفهم والتحمل ، بعكس جذور هذه العقيدة الفكرية والتي افسح المجال لها في أوربا وأمريكا بالانتشار ، ذلك أن ردة فعل تسلط الكنيسة وتحكمها في الإنسان كما جاء في محاكم التفتيش التي فتحت الباب على مصراعيه لبروز الوجودية ، ولذا تأثرت بالعلمانية ، وغيرها من المبادئ التي صاحبت النهضة الأوربية الحديثة ، التي قامت على رفض تعاليم

الكنيسة ، أو الارتباط بالدين .. ففساد الديانة النصرانية بغلوّ رجالها ، لا يبرر للعرب والمسلمين أن يركنوا إلى الوجودية ، وغيرها من المبادئ والأفكار لأن أخطاءهم لا تنسب للإسلام ، بل في الإسلام علاج لكل داء ، وحماية من كل وباء اجتماعي : في العقيدة وراحة النفس ، وفي الخلق وقوام النفس ، وفي دفع الإنسان للرقى والتطور بالعمل والمثاليات .

وعلماء المسلمين أدركوا في هذا العصر خطر المذاهب المعاصرة ، فدرس مجلس المجمع الفقهي الإسلامي المنعقد في مكة المكرمة في دورته الثانية المنعقدة ما بين ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣٩٩هـ إلى ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ الوجودية وبان لهم خطرها بضلال معتنقيها ، وأخرجوا بشأنها القرار الأول التالي نصه :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وبعد :

فقد درس مجلس المجمع الفقهي ، البحث الذي قدمه الدكتور محمد رشيدي عن الوجودية ، بعنوان : كيف يفهم المسلم فكرة الوجودية ، وما جاء فيه من شرح لفكرتها ، ولمراحلها الثلاث ، التي تطور فيها هذا المذهب الأجنبي إلى ثلاثة فروع ، تميز كل منها عن الآخر ، تميزًا أساسيًا جذريًا حتى لا يكاد يبقى بين كل فرع منها والآخر صلة ، أو جذور مشتركة ،

وتبين أن المرحلة الوسطى منها كانت تطورًا للفكرة من أساس المادية المحض ، التي تقوم على الإلحاد وإنكار الخالق إلى قفزة نحو الإيمان بما لا يقبله العقل ، وتبين أيضًا أن المرحلة الثالثة رجعت بفكرة الوجودية إلى إلحاد انحلالي ، يستباح فيه تحت شعار الحرية كل ما ينكره الإسلام ، والعقول السليمة .

وفي ضوء ما تقدم بيانه ، يتبين أنه – حتى فيما يتعلق بالمرحلة الثانية المتوسطة من هذه الفكرة ، وهي التي يتسم أصحابها بالإيمان

بوجود الخلق والغيبيات الدينية – وإن كان يقال إنها ردّ فعل للمادية والتكنولوجيا والعقلانية المطلقة ، وكل ما يمكن أن يقوله المسلم عنها في ضوء الإسلام : هو أن هذه المرحلة الثانية منها ، أو عقيدة الفرع الثاني من الوجودية رأي أصحابها في الدين على أساس العاطفة دون العقل ، لا يتفق مع الأسس الإسلامية في العقيدة الصحيحة المبنية على النقل الصحيح ، والعقل السليم ، في إثبات وجود الله تعالى ، وما له من الأسماء والصفات ، وفي إثبات الرسالات على ما جاء في كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله محمد ﷺ .. وبناء على ذلك يقرر المجلس بالإجماع :

أن فكرة الوجودية في جميع أفكارها ومراحلها وتطوراتها وفروعها ، لا تتفق مع الإسلام ، لأن الإسلام إيمان يعتمد النقل الصحيح ، والعقل السليم ، معًا في وقت واحد .

فلذا لا يجوز للمسلم بحال من الأحوال أن ينتمي إلى هذا المذهب ، متوهمًا أنه لا يتنافى مع الإسلام ، كما أنه لا يجوز بطريق الأولوية أن يدعو إليه ، أو ينشر أفكاره الضالة .. وبالله التوفيق [وقد وقع القرار من خمسة عشر عالما يمثلون أغلبية العالم الإسلامي] .

فراسة أبناء نزار :

أورد المسعودي في مروج الذهب وغيره : أن نزارًا لما حضرته الوفاة جمع بنيه : مضر وإيادًا وربيعة ، وأنمارًا ، وقال لهم : يا بني هذه القبة الحمراء – وكانت من ادم – لمضر ، وهذا الفرس الأدهم ، والخباء الأسود ، لربيعة ، وهذه الخادم – وكانت شمطاء – لإياد ، وهذه الندوة – وهي مجلس القوم نهارًا – لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تقسمون ، فأتوا الأقصى الجرهمي ، ومنزله بنجران ، فلما مات تشاجروا في ميراثه ،

فتوجهوا إلى الأقصى الجرهمي .

فبينما هم في مسيرهم إليه ، إذ رأى مضر أثر كلأ قد رعي ، فقال : إن البعير الذي رعي هذا لأعور ، قال ربيعة : إنه لأزور ، قال إياد : إنه لأبتر ، قال أنمار : إنه لشرود .

ثم ساروا قليلاً ، فإذاهم برجل ينشد جمله ، فسألهم عن البعير ، فقال مضر : أهو أعور ؟ قال : نعم ، قال ربيعة : أهو أزور ؟ قال : نعم ، قال إياد : أهو أبتر ؟ قال : نعم ، قال أنمار : أهو شرود ؟ قال : نعم ، وهذه والله صفة بعيري ، فدلوني عليه ، قالوا : والله ما رأيناه ، قال : هذا والله الكذب ، وتعلق بهم ، وقال : كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته .

فساروا حتى وصلوا نجران ، فلما نزلوا نادى صاحب البعير : هؤلاء أخذوا جملي ، و وصفوا لي صفته ، ثم قالوا : لم نره .

فاختصموا إلى الأفص الجرهمي – وهو حكم العرب – فقال الأفص : كيف وصفتموه ، ولم تروه ؟ .

قال مضر : رأيته رعي جانبًا وترك جانبًا ، فعلمت أنه أعور ، وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فأسدته ، فعلمت أنه أزور ، لأنه أفسده بشدة وطئه ، لا زوراره ، وقال إياد : عرفت أنه أبتر باجتماع بعره ، ولو كان له ذيل لمصع به – أي حركه – وقال أنمار : عرفت أنه شرود ، لأنه كان يرعى في المكان الملتف نبته ، ثم يجوزه إلى مكان أرق منه ، وأخبث نبتًا ، فعلمت أنه شرود ، فقال الأفص للرجل ، ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه .

ثم سألهم من أين أنتم ؟ فأخبروه فرحب بهم ، ثم أخبروه بما جاءوا من أجله ، فقال : أتحتاجون إلي وأنتم كما أرى ، ثم أنزلهم وذبح لهم شاة ، وأتاهم بشراب ، وجلس لهم الأفص ، حيث لا يرى ، وهو يسمع كلامهم ،

فقال ربيعة : لم أر كاليوم لحمًا أطيب منه ، لو لا أن شاته غذيت بلبن كلبه ، فقال مضر : لم أر كاليوم شرابًا أطيب منه ، لو لا أن حبلتها – أي أصلها – نبتت على قبر ، فقال إياد : لم أر كاليوم رجلاً أسرى منه – أي أكثر مروءة في شرف – لو لا أنه ليس لأبيه الذي يدعى إليه ، فقال أنمار : لم أر كاليوم كلامًا أنفع في حاجتنا من كلامنا .

وكان كلامهم باذنه ، فقال : ما هؤلاء إلا شياطين .

ثم دعا القهرمان –وهو القائم بأموره– فقال : ما هذا الشراب وما أمره ؟ فقال : من حبلة غرستها على قبر أبيك ، لم يكن عندنا شراب أطيب من شرابها ، وقال للداعي : ما أمر هذه الشاة ؟ قال : هي شاة صغيرة أرضعتها بلبن كلبة ، وذلك أن أمها كانت قد ماتت ، ولم يكن في الغنم شاة ولدت غيرها .

ثم أتى أمه فسألهاعن أبيه : فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المال ، وكان لا يولد له ، قالت : فخفت أن يموت ولا ولد فيذهب الملك .

فخرج الأفص عليهم ، فقص القوم عليه قصتهم ، وأخبروه بما أوصى به أبوهم ، فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدنانير والإبل الحمر ، فسمى مضر الحمراء لذلك .

وقال : أما صاحب الفرس الأدهم والخباء الأسود ، فله كل شئ أسود ، فصارت لربيعة الخيل الدهم ، فقيل : ربيعة الفرس ، وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد ، فصارت له الماشية البلق من الحبلق – وهي صغار الغنم أو قصار المعز و دمامها – والنقد – وهو جنس من الغنم قبيح الشكل – ، فسمى إياد الشمطاء ، وقضى لأنمار بالدراهم وبما فضل ، فسمى أنمار الفضل ، وصدروا عن ذلك من عنده .

[مروج الذهب : ١/٢٠٢]